صمود 2

1 - باتـــعـــة

أمسك الليل بفرشاته يلون لوحة الوجود، وقفت بنافذتي أتأمل القمر الباسم الذي يطل بوجهه الجميل على البشر، ما عاد يشعر به الكثيرون، لكن هذا لا يعنيه فالحياة لابد أن تستمر طوعًا أو كرهًا، الحياة كنز كبير لكن فتحه يحتاج إلى كلمة سر!!

باتعة!!

كان الاسم يغيظني، كم تمنيت لو كان اسمي كتلك الأسماء التي أقرأها في الروايات أو حتى تحفل بها قوائم أسماء تلاميذي بالمدرسة رحم الله أبي! أصر أن يسمي خلفته أول إنجابه باسم والدته، واشترك مع الأم في تسمية الولد "عمرو" والصغرى "دينا" سعدت حين حصلت على كتاب عن معنى الأسماء. "الباتعة": الحكيمة، القوية، القاطعة في الرأي، السديدة في الفكر.

أدخل لأبحث عنها، أشعر بحاجتي إليها الآن، كراسة خواطري، الكثيرات يكن لهن مثل هذه الكراسة، لكن كراستي ظلت صديقتي حتى بعد أن سجلت لرسالة الماجستير.

تنتابني الحاجة لكراستي مع كل وجع يضرب نفسيتي، أقرأ بعض ما فيها.. رحم الله أبي، اختطفه الموت دون مقدمات، كنا صديقين، ما قلق عليّ أحد قلقه عليّ، يجن جنونه لو تأخرت لأسبوعين بالمدينة الجامعية دون اتصال، وحين أعلمه بيوم عودتي أجده ينتظرني في

المحطة كي نعود معًا إلى البيت، نتحدث في كل شيء، أحكي له، يناقشني بهدوء عذب، أقنعه مرة، ويقنعني - رغم بساطته – مرات، يراني حلمه في الحياة.

هذه المعاملة لا يعاملها حتى لعمرو المدلل.

كل فتاة بأبيها معجبة – كما يقولون. لم يكن أبي يحمل سوى الشهادة الابتدائية، كان يعمل مؤذنًا بالمسجد القريب، يجيد الحديث في أمور الدين والحياة وله وجهة نظره في السياسة، ويفهم في الأوراق والمصالح الحكومية ذات الصلة المباشرة بالناس ويعرف كيفية تفكير الكثير من الناس، ويؤمن بالضعف البشري ويتعاطف معه، حين كنت أمازحه أقول إنه "عقاد" المنطقة فيضحك سعيدًا كطفل حبيب.

أبي الحبيب – وليس هذا ذنب أحد – أورثني مع طباعه وحبه للقراءة بعضًا من صفاته الجسدية، صاحبة قامة طويلة وبشرة قمحية داكنة، أعتبر نفسي جميلة لكنه ذلك الجمال الهادئ الذي يحتاج لتأمل.

قالت أمي متنهدة: حكمتك يارب ولا اعتراض، لو كان بياض عمرو في باتعة!!

آوه ياأمي.. مجتمعنا يفضل المرأة البيضاء، أستشعر القبول لدى من ألتقيهم فى الحياة، لكن هذا القبول لم يترجم حتى الآن إلى المناسب الذي تبغيه أمي بشدة.

ياأمي العزيزة الحالة الاقتصادية في البلد ليست على ما يرام، وهي كذلك دائمًا.. العالم على شفا حرب لا يعلم إلا الله ثم القائمون بالبيت الأبيض والبنتاجون والكونجرس إن كانت ستندلع أم لا .

صحة أمي – منذ وفاة أبي المفاجئة – كدرجات سلم، تهبط كل يوم درجة.

خرج أبي للمسجد كعادته، أذَّن للظهر، غاب إمام المسجد فصلى بالناس، وجلس بعد الصلاة يتمتم بأذكار ثم سقط ميتًا، حملوه للبيت لتكون الصدمة.. هذه الحياة عبث، ما خلقنا إلا للحزن والعذاب، المصاب فادح، لو مرض وطفنا به على الأطباء والمستشفيات حتى يئسنا من شفائه لكان في ذلك أكثر التأسي، أما أن يسلبه الموت هكذا فتلك...

أستغفر الله العظيم من كل الذنوب، اللهم إرادتك، سبحانك لا تسأل عما تفعل وهم يسألون.. كراسة خواطري حفلت باضطرابي وتخبطي.

تعلقت بنا الحياة على المعاش الذي تركه الوالد الراحل حتى وصلني خطاب التعيين كمعلمة.

فكرت أن أقطع رسالة الماجستير، لم أتخذ قرارًا بعد، أحاول أن أكون راضية، أصلي الجمعة- وبعض الفروض – في المسجد، الصلاة تمنحني هدوءًا وترضية، لولاها لأصابني جنون ولا شك، الحيرة والألم يحيطان بكل شيء، أفتح التليفزيون، أمريكا حشدت حشودها في الخليج تنوي ضرب العراق، والعالم يحاول منع ذلك أو يتظاهر بالمحاولة، الجهود الدبلوماسية لا تهدأ.

حرب أم لا حرب؟!

شريعة الغاب أم قوانين العقل؟!

الانسحاب من الماجستير أم استكمال الطريق؟!

ستخفف أمي من أحزانها وقلقها أم تمضي بنا الدنيا إلى مصير محتوم؟!

ترى أمي أن حل كل المشكلات في زواج البنات . الزواج – فى بلادنا – محاط بتعقيدات تبدو بلا نهاية، أشعر بقرف وزهد تجاه فكرة الزواج ككل خاصة مع دوام الإلحاح عليها، فكل ما يتصل بالزواج يؤلمني، أنا والألم الشهري والقدر على موعد دائم لا ينقطع انتظامه، تأتيني عادة كل شهر بألم عظيم، وصداع مستمر، وألم آخر في العمود الفقري، أكاد أستشعر انفجارًا في المبيضين، خمسة أيام من العذاب كل شهر فكيف أتزوج!!

حين كان الأمر جديدًا ترددت كثيرًا قبل أن أصارح أمي، ذهبت بي للطبيب، يالللمرار المخجل رغم لباقة الطبيب المسن!

حرصت أمي على أن يكون ذهابنا للطبيب سرًا، احتاطت بأنها ستقول – إذا انكشف الأمر – إن المشوار من أجلها. حين أبدى والدي بعض الاستغراب قالت: عيب وفضيحة أن نذهب بالبنت لطبيب النساء قبل زواجها، مائة لسان ولسان سيذبحنا. أومأ أبي برأسه موافقًا ومحرجًا ومتضايقًا من عادات كئيبة لن يتخلص منها مجتمعنا قريبًا.

أخبرنا الطبيب ألا نقلق، وكتب "الروشتة" وأوصى بالاستمرار في تناول الدواء المطلوب، هذا يحدث لبعض النساء، الدواء عبارة عن "كبسولات" أحدثت خللًا وارتباكًا في راتب الوالد، استرحت وزالت الآلام المركبة شهرًا فآخر فلما امتنعت عن الكبسولات عادت الآلام بشراسة الانتقام الفظيع، اقتنعت أن أصبر فأن أصبر وحدي خير من أن نتعب كلنا.

كل الذين يقفون بشاطئي لا أجد منهم ما تسميه أمي "العريس المناسب".. انتهى أمرهم كلهم إلا ذلك الثقيل كالجبل المدعو "علي طمبة" .. أشتهر باسم طمبة لعمله فى السباكة، معجب بنفسه لدرجة خانقة، يتدخل – بجهله المقزز – فيما يعرف وما لا يعرف، تقدم أكثر من مرة، وسمع الرفض قاطعًا فى كل مرة غير أنه يصر على فرض نفسه متعللًا بالجبرة بشكل زيتي كريه.

حين أتجه للمدرسة صباحًا يرميني بكلمات يحسب أنه يكسب ودي بها، وأشعرها لاتلطخ نفسيتي فقط وإنما أيضًا ملابسي .

أجد روحي وراحتي مع الكتب، الكتب عالم كبير ودنيا واسعة، الكتب كالبشر منها الطيب والهادئ والساذج والعاقل والخبيث والدنيء وابن الناس وابن الـ.....

عالم الكتب أكثر رفقًا ورحمة من دنيا البشر. يشهدون لى بالكفاءة التامة في عملي، ويحبني تلاميذي وأحبهم كأولادي، وحين أعود من مدرستي أجد أمي أمام التليفزيون، حريصة على تتبع أخبار السياسة، بمجرد دخولي تسألني مستوضحة عما جاء فى الأخبار، فأنا مصدرها الرئيس للمعلومات ومعلقتها على الأحداث وصانعة وجهة نظرها، تصر أن تعرف ما فعلوا في أمر العراق، وعن هؤلاء الذين يفتشون هناك عن أسلحة الدمار الشامل، وهؤلاء الذين يبتسمون و يتصافحون على الشاشات، من منهم مع مصر والعرب ومَنْ ضدنا.

أداعبها بأنها صارت خبيرة في الشئون السياسية العالمية والمحلية.

عليّ أن أستيقظ مبكرة للغاية، أصلي الفجر وأعد الإفطار ثم أرتدي ملابسي وأنزل لمواجهة الحياة، فالمدرسة الابتدائية التى أعمل بها تحتاج لركوب مواصلتين كي أصل في الموعد، تقدمت بأكثر من طلب للنقل لمدرسة قريبة وها أنا أنتظر.

مديرنا الأستاذ فواز الحسيني شخصية غير مستقرة، يحاول- دائمًا – صنع حاجز من الرهبة بينه وبين مَنْ بالمدرسة، ويقولون عنه – فى كلام الوساوس والأفواه التي تلتقم الأذان – إنه "أستغفر الله العظيم" منشار.

يحيرني أمره هذه الأيام، لست أدري ما يريد مني بالضبط، فجهاز الاستشعار الأنثوي غير مطمئن ويبدو في حالة دائمة من التوتر الحذر، أفهم الشخص من نظرات عينيه.

العين تعلم من عيني محدثها: إن كان من حزبها أو من أعاديها

حين تحدثت فى الإذاعة المدرسية عن نصر أكتوبر، واقترحت على تلاميذى أن يكون الموضوع هو الرئيس فى إذاعة الغد ، وكتبت مقالة عن الحرب وأبطالها فوجئت بالأستاذ فواز يأتيني – بعدها- في فصلي ليخبرني أنه أحد أبطال أكتوبر، وأخذ يحكي عن بطولاته والحرب وكيف أنه فعل كذا.. وأسرع بكذا.. هل الرجل يقصد شيئًا أم تراني واهمة!!

كل ما قاله ذكره كثيرًا في الاجتماعات فما الداعي لتكراره عليّ منفردة؟! وما الداعي لتعطيلي عن حصتي؟! الرجل كثير الكلام عن نفسه فى الاجتماعات، يجد متعة في الأمر تكلفنا جميعًا وقتًا وعنتًا.. في الاجتماع الأخير تحدث عن غياب أحد الزملاء لمرضه، وأظهر غضبًا ثم أتحفنا بمحاضرة عن ركب التقدم والنهوض بالعملية التعليمية، ولان صوته، وخلت أن عينيه مصوبتان إليَّ وهو يقول:

- أنا لا أستسلم للمرض أبدًا، فمهما كان المرض قويًا فإني أتواجد في عملي، إذ إنني أقوى من المرض، فأنا - بحمد لله - أشعر بقوة شاب في العشرين.

(وأشار بقلمه إلى رأسه) والدليل أن شعري لازال فاحمًا لم تبيض منه شعرة ولم تسقط. في حين سقط شعر بعض الشباب هنا وابيض من البعض الآخر.

وانطلق ضاحكًا كأنه قال نكتة يطلب الضحك لها فيجامله البعض بضحكاتهم وابتساماتهم، وانفض الاجتماع وأنا أكاد أفكر في الانتحار في حين همست زميلة مغتاظة:

- صاحبك عايش لنا في دور المتصابي، رغم أنه مصاب بالسكر والضغط.

ياربي متى أنتقل من هذه المدرسة؟!

عدت للبيت مرهقة فإذا بالأخ "طمبة" جالسًا مع أمي وقد نال راحته كاملة وكأنه رب البيت. ما أن رآني حتى هب واقفًا، ترحيبه يشبه ضوضاء آلات التنبيه في السيارات في يوم حار مزدحم. اللهم ألهمني صبرًا من عندك حتى أستطيع صرفه بهدوء!!

أ – عـمـرو

عندما كنا طلابًا بالجامعة كانت لنا قيمة، إذ كان لنا عمل معروف. طلاب!

أما وقد تخرجنا فلا قيمة لنا..حين قرأ أمين الشرطة بطاقتي في إحدى النقاط المرورية قرأها ساخرًا:

- حاصل على ليسانس!

ردَّها إليَّ وقد طفحت السخرية:

– خذ يا صاحب الليسانس.

حين كنت طالبًا ظننت – بسذاجة – أن من حقي أن أحب.

أنا وهدى رسمنا المستقبل معًا وكأنه قطعة من الصلصال، الحياة داخل أسوار الجامعة تمثل عالمًا مثاليًا حالمًا لا علاقة له بالواقع العملي خارجها.

كنت أعتقد أنني سأفعل – بعد التخرج – ما لم يفعله أبو الفوارس، العقبة الوحيدة تتمثل في الليسانس فإذا حصلت عليه فسأنطلق إلى السماء العالية..

هكذا قلت لهدى فصدقتني وتحدثت مع أبويها عني. أبوها رجل محترم.

و"محترم" هذه لها الكثير من المعاني والمترادفات النسبية في هذا العصر لعل منها: أن المحترم هو "الواصل" كثير الاتصالات والعلاقات، ومن يستطيع إدارة شبكة مصالح أو حتى يكون عضوًا فيها. تاجر كبير على علاقة بأحد أعضاء مجلس الشعب، اتفقت مع هدى أن أتقدم طالبًا يدها، ما أروع أن نكون مخطوبين وقد أوشكنا على التخرج، سيكون هذا دافعًا نحو التفوق!

تأملني والدها التاجر بنظرة متفحصة، أريبة، مريبة ثم حسب الأمر بهدوء، الامتحانات تقترب، وعد ابنته أن يفكر فى الموضوع إذا هي نجحت وتفوقت، أخبرتني هدى بذلك بعد أن صرفني الرجل بهدوء دون أن يعدني بشيء، كان يراودني الحلم عندما مات أبي.

الدنيا لا تساوي جناح بعوضة (كما قال الشيخ في خطبة الجمعة).. المدلل صار عاريًا في مواجهة دنيا لا مكان فيها ولا تعترف بالمدللين اليتامى.

إذن فقد تغير كل شيء، حصلنا على الليسانس، سعى والد هدى لابنته حتى حصل لها على وظيفة ثم عريس مناسب.

بكيت للمرة الأولى منذ تركت المرحلة الابتدائية، صرت عصبيًا أثور لأتفه الأسباب، أختاي تشتكيان مني مر الشكوى. عملت لفترة كمندوب مبيعات، العمل في المعمار يداوي ذكريات القصص الفاشلة والمشاعر الجريحة والدموع والأفلام العربية وليس الزمن وحده من يفعل، سرعان ما انتقلت للعمل عاملًا في مطعم طردت منه في وقت قياسي ثم ها أنا جالس على المقهى.

على المقهى أنسى كل الهموم، نطلب مشروبًا بسعر مضاعف مقابل أن نعيش مع أغاني "الفيديو كليب" الأجنبية العارية، أحيانًا تتحول الأغاني إلى أشياء أخرى.

هذا الولد "علي طمبة" لازال يتقرب مني، يجهد نفسه ليجد موضوعًا للكلام معي، يريد أن يكون صديقي، لا مانع من هذه الصداقة طالما يصر على دفع حساب المقهى، الوغد لا يريد الزواج من باتعة حبًا فيها وإنما طمعًا في راتبها..خسارة – وأي خسارة!- أن تتزوج باتعة ذات العلم والثقافة والأدب والرقة بهذا الوغد.

متى أتخذ قرارًا حاسمًا نهائيًا بقطع علاقتي بـ "طمبة" ومنع دخوله منزلنا!!

العاطل ليس من حقه أشياء كثيرة، وأنا لا أخسر من جهته، أحيانًا أقترض منه مبالغ لا أردها.

كل هؤلاء الجالسين على المقهى يحلمون بوظيفة، أي وظيفة، رغم أنهم يدركون جميعًا – أنه ليس من المنطقي أن يتحول الجميع إلى موظفين خاصة في ظل الرأسمالية العالمية.

حوَّل صبي المقهى إلى إحدى القنوات الفضائية الإخبارية الشهيرة.. المظاهرات تتوالى في كل بلاد الدنيا – تقريبًا - منددة بالحرب، وأمريكا تصر بغطرسة القوة الغاشمة على سحق العراق، نتمنى لو نفعل شيئًا ذا قيمة، المظاهرات في كل مكان، تحذرني أمي دائمًا من المشاركة خوفًا على ابنها الوحيد..سأنفجر إذا لم أهتف في هذه المظاهرة، قام بعضنا لينضم للجموع الهاتفة:

"الله أكبر.. الله أكبر.. ياعراق ياحبيب.. أبدًا شمسك مش هتغيب"

ارتفع هتافنا، وانشقت الحناجر غضبًا، وسال العرق غزيرًا، وحين عدت للمنزل كنت في ارتياح لم أشعره منذ تخرجت فى الجامعة، حين سألتنى دينا بقلق:

- ما الذي فعل بك هذا؟ وأين كنت؟!

انتبهت إلى أن ملابسى متهدلة، غارقة في العرق الممزوج بالتراب، أجبتها بقسوة غير مبررة، ثم دخلت فأخذت حمامًا دافئًا وخرجت للمقهى.. يتحدثون عن المظاهرة والحرب، قال أحدهم بحماس شديد:

- يا إخوانا، أنا محتار، إذا كانت الحرب قائمة قائمة، فلماذا يدمر العراق أسلحته ؟! لماذا يحطم الصواريخ "صمود2" ؟!

رد آخر موضحًا ومحاولًا أن يبدو أمام الآخرين الأكثر وعيًا وفهمًا دون أن يدرك أنه يردد نفس ما قاله أحد المحللين – منذ قليل – على إحدى القنوات:

- العراق يحاول تجنب الحرب أصلًا، وتدمير أسلحته يتم تحت إشراف الأمم المتحدة.

أصدر الأول بفمه ضراطًا قبيحًا وأشار إشارة أكثر قبحًا ثم هتف بسخرية:

-الأمم المتحدة!! هذه ذقني إن لم تقم الحرب، وإن لم تكن الأمم المتحدة هذه تدمر أسلحة العراق خدمة ومجاملة لأمريكا.

حديث السياسة والحرب وأمريكا والعراق وصدام حسين وأسلحة الدمار الشامل هو المسيطر على أحاديث الناس هذه الأيام.

تسآلت حائرًا:

- ماذا سيكون موقفنا إذا قامت الحرب؟!

ثارت زوبعة من المناقشات والجدالات، تضايقت من طريقة المناقشات فتركت المقهى وانصرفت.

2 – باتـــعـــة

في حياتي قصة حب لم تكتمل، دفنت القلب حيًا ينزف رغم براءة القصة، حسان كان زميلًا جاء للمدرسة كى يعمل بالأجر، حديث التخرج، مبهر بأسلوبه السلس وثقافته الرفيعة وخفة ظله.. بدأت معرفتي الوثيقة به حين رأى معي رواية "سارة" (الرواية الوحيدة التي كتبها العقاد) فقال مشاكسًا بابتسامة هادئة:

- أتعرفين يا أستاذة باتعة أن العقاد ذكر – على لسان إحدى شخصيات الرواية التي بيدك – أن المرأة لا تقرأ إلا عن رجل أو بسبب رجل!!

ابتسمت قائلة بحماس:

- لا تنس تحامل العقاد الشهير على المرأة.

انطلقت منه ضحكة صافية موافقة على ما أقول، وتعددت مناقشاتنا وجلساتنا، لم يغازلني بشكل صريح، لكني أعرف وهو يعرف أني أعرف أنه أحبني وأنا كذلك، العيون لها لغة خاصة جعلت أمير الشعراء يهتف:

وتعطلت لغة الكلام وخاطبت : عينيّ في لغة الهوى عيناك

وحتى حين لا تتعطل لغة الكلام، فإن الكلام لا يكون كالكلام وعندما حكى لى حسان ظروفه علق بسخرية مريرة كأنه يعتذر:

- أي إنني عندما أكون صالحًا للزواج سأكون في الأربعين.

وبلغة العيون اتفقنا أن نعيش قصتنا ونستمتع بها حتى يقضي الله أمرًا لابد سيكون، لكنّ الحياة الجافة تتجهم دائمًا للمحبين، فقد ثارت أقاويل عن جلساتنا معًا رغم أنها أمام الجميع، وليس فيها ما يخجل، تنهد قائلًا بحسم مرير:

- طالما أننا لسنا متأكدين أننا لبعضنا فلا داعي لهذه الجلسات البريئة.

تاهت لغة العيون فقلت بحزن:

- هل نفعل خطأً؟!

- أخاف عليك.

طأطأت رأسى وشعرت باحمرار وجهي وأنا أهمهم:

- سأنتظرك.

كاد يبكي وهو يرد:

- أشفق عليك.

رغم أننا لم نعد نجلس معًا، ولم تعد الصلة بيننا إلا مجرد زمالة كالتي بين الجميع إلا أن شائعة ارتباطنا ظلت تنتشر رغم أنفينا و نفينا وتأكيدنا على أننا أخوة وزملاء.

استدعاني الأستاذ فواز، ابتسم، آه من هذه الابتسامة التى تشع اصفرارًا، لا أتوقع خيرًا من هذه المقابلة المنفردة في مكتبه..قال كلامًا متميعًا يحتمل أكثر من معنى يثير القلق في أكثر من اتجاه، ثم سألني مباشرة:

- ألم يلفت نظرك أحد من شباب المدرسة؟!

هتفت مستنكرة:

- شباب المدرسة!! من أي ناحية؟!

أشعل سيجارة ورمقني ماكرًا، شعرت أنه سيقول "اطلعي من دول" إلا أنه قال:

- بعضهم غير متزوجين، وأنا أتمنى لك الخير كما تعلمين .

استطعت أن أكظم غيظي بصعوبة، ما له هذا الشخص بي! وهل لمجرد كونه رئيسي المباشر في العمل يتدخل في شئوني بهذه اللزوجة الكريهة؟!

قلت وقد تصاعد الغضب في صوتي:

- ماذا تقصد يا أستاذ فواز؟

أجاب بسرعة كأنه ينتظر هذا السؤال:

- حسان ولد محترم ومثقف مثلك إنما أنا.....

قاطعته متجملة بصبر غاضب:

- يا أستاذ فواز، الأستاذ حسان مثل أخي عمرو تمامًا وكل السادة أعضاء هيئة التدريس أعتبرهم كذلك.

استأذنت منصرفة بضيق شديد، حكيت ما حدث لحسان فبدا الكرب على وجهه ثم قال كأنه يحدث نفسه فقط:

- يبدو أنني سأجلب لك المتاعب، وأنا مجرد مدرس بالأجر هنا.

دون أن يخبرني بشيء فوجئت به بعدها – بعدة أيام – قد جاء إلى فصلي قائلًا بابتسامة معتذرة:

- أتركك بخير يا أستاذة باتعة، إنني سأنتقل منذ اليوم للعمل في مدرسة أخرى.

بهت، سألت مأخوذة:

-كيف يا حسان؟!

طأطأ إلى الأرض وهو يقول كأنه يقاوم البكاء:

- تبادلت المواقع مع زميل آخر بالأجر مثلي، تعلمين سهولة هذا الإجراء بالنسبة لمن يعملون بالأجر.

لست أدري كيف انتهى هذا اليوم الدراسي..

يا ربي! هل سأراه مرة أخرى؟!

هل سأجد مثله؟!!

انفردت بكراسة خواطرى أبكي على صدرها..

لماذا ياسيدي الجميل خنقت القصة الرقيقة البريئة؟!

لم استعجلت يا أميري الجميل؟!

أما كانت تذوي وحدها وتموت، فلما استعجلت!! أيها الملائكي الجميل، شكرًا لك على كل لحظة خارج حدود الزمن قضيتها معك.

خرجت للحمام فتوضأت، حين كنت أعد الطعام ناديت دينا كي تساعدنى، تعللت بمذاكرتها، أعرف أنها لا تذاكر – حقيقة - إلا عندما يقترب الامتحان كي تحصل على تقدير "مقبول".. جلسنا للطعام فتشاكس عمرو ودينا، فضت أمي المشاكسة بصوت متألم، فتح عمرو التليفزيون.. تصاعد الاعتداءات الصهيونية على زهور بيضاء بريئة، ألا يفهم الصهانية سوى لغة القتل والخراب والدمار والسجن!!.. قام أحد الملائكة بعملية استشهادية.. الحرب على العراق ستقع لا محالة ولا مفر.

أحد المتعالمين جلس أمام الكاميرا في ذلك البرنامج – بكرشه الضخم ولغده المتعاظم وبسمته البلهاء، يتجشأ كأنه أكل بشراهة بالغة قبل أن يأتى للبرنامج - يقول بأن العمليات الاستشهادية ضد الصهاينة لا معنى لها ولا أهمية ولا تعد من قبيل النضال لتحرير الأرض.

تنهدت غاضبة، طالبو المصلحة يتاجرون بكل شيء، حتى الشرف والعفة ودم الشهيد ودموع اليتامى وخفر العذارى.. قلت متأففة ساخرة بغيظ وقد تركت الطعام:

- المعنى والأهمية والنضال المقدس إذن فيما يفعله الصهاينة، أما إن تأوه الجريح أو رفع المظلوم يده مدافعًا عن نفسه فلا معنى لما يفعله.

ضحكت دينا من ثورتي قائلة:

- مهلًا يا أختي العزيزة، سينفجر أحد عروقك، هذا رجل يخرف، فهل ستجعلين عقلك مساويًا لعقل واحد مخرف!!

ب – عـمـرو

الدول تحذر رعاياها في العراق والدول المجاورة لها من مخاطر الحرب المحتملة وتنصحهم بالعودة لبلادهم، يبدو أنها لن تكون حربًا عادية، حنانيكم أيها الأمريكان!!

حضر بالأمس من الكويت المهندس خالد زكريا ابن عم والدي، يعمل هناك منذ سنوات استطاع خلالها تكوين ثروة لا بأس بها، تلح أمي وترجو أن أذهب كي أسلم وأصافح وحمدًا لله على السلامة يا خالد بك، والله إن أمي هذه طيبة بالفعل، لا تدري المسكينة أن صلات القرابة قد صارت مجرد عبء، لقد التقيت بهذا الرجل من قبل، مجرد آلة صماء لجمع المال، لو قال له أحدهم:

"صل على النبي" فسيسأل: بكم دينار؟!

قالت أم] متوسلة:

- يا ولدي، لا يعنينا ماله، ولكنه ابن عم والدك، فاذهب من أجل صلة الرحم وعظام القبر.

قلت بعناد:

- هذا الرجل لم يزرنا، ولم يقف بجوارنا فى أي مشكلة مررنا بها في يوم من الأيام.

- ياولدي، الدنيا تلهي أهلها، والرجل مسافر باستمرار.

- لن أذهب، فقد يعتقد أنني أزوره لمجرد أن يعطيني هدية من الهدايا التي يوزعها على أحبابه.

- لا حول ولا قوة إلا بالله ، يا ولدي، لابد أن يذهب أحدنا، وأنا مريضة وأنت الرجل.

قلت حتى أتخلص من هذا الإلحاح:

- حاضر يا أمي، سأذهب، لكن من أجل خاطرك فقط.

خرجت للمقهى، جلست وحدى منزويًا بأحد الأركان، كلما خفّت نوبات الإحباط أبدأ من جديد في البحث عن عمل.. ماذا لو أسافر للخارج!!.. هذا الوقت آخر وقت يمكن التفكير فيه بالسفر، فالمسافرون يرجعون أوقات الحروب، خالد زكريا محترف السفر – الذي إذا عاد إلى مصر شعر بالغربة – عاد مع من عادوا خوفًا من الحرب.

مهلًا! إن هذا الوقت هو المثالي للتفكير في السفر، فالكل يهرب تاركًا أعماله، الأعمال موجودة تحتاج لمن يقوم بها والأعمار بيد الله وحده، ماذا لو عرضت على خالد، أقصد عمي خالد أن يأتيني بعقد عمل في الكويت!!

هو قد سافر كثيرًا وله خبراته ومعارفه ولن يصبر على البقاء في مصر طويلًا، وبمجرد نهاية الحرب فإنه سيعود مرة أخرى، وساعتها سيسهل عليه أن يرسل إليّ بالعقد، سأعده وأقسم له بأغلظ الأيمان أنني لن أدّخر لنفسي دينارًا واحدًا ولن أرسل لأمي شيئًا حتى أرد له ثمن العقد، سأرده بفائدة إن كان يريد ذلك و.....

يا لسذاجتك يا عم عمرو!!

خالد؟!

خالد يساعدك ويبحث لك عن عقد عمل! بل ويدفع لك ثمنه ويصبر عليك حتى تعمل وتسدد له!!

خالد! لو وجدك جنيهًا فسيحبسك في خزانته فورًا غير مأسوف على شبابك.. لو فاتحته في موضوع كهذا سيحرجني بالتأكيد.

يحرجني!!

ما هذه البلاهة ياعم عمرو! فليحرجك!!

اعرض عليه أمرك، والإحراج والمواقف الصعبة وخيبة الرجاء كلها أمور تعودتها وصارت مألوفة ككوب الشاي الذي تحتسيه في هذا المقهى.

حاول يارجل، فالرجل عمك، والمثل الشعبى يقول!

"لايخرج الظفر من اللحم والدم لا يصير ماءً"

ستظل ساذجًا غريرًا طوال عمرك يا فتى، ففي هذا الزمن يخرج الظفر من اللحم والدم يصير ماءً بسهولة بالغة.. العدوان على العراق سيتم بمباركة بعض الدول العربية وقلة حيلة البعض الآخر.

لا داعي لهذا اليأس والقنوط يا عمرو، اذهب للرجل، الأمر يستحق المحاولة، ومن يدري؟!

3 – باتعة

أقف هذه الأيام – على أطراف أعصابي، فأنا المسئولة – وحدي تقريبًا – عن تنظيم وإعداد فقرات حفل عيد الأم الذي تقيمه المدرسة كل عام.

العذاب الشهري يهاجمني بضرواة، حاولت الاعتذار عن عدم تنظيم وإعداد الحفل غير أن الأستاذ فواز حاصرني بروحه اللزجة حتى لم أجد خلاصًا إلا بالموافقة، تعبت كثيرًا في العام الماضي وتعب معي التلاميذ، وأثنى الضيوف على الحفل، وقالوا كلامًا سعد به المدير كثيرًا حتى أخذته نوبة من الشهامة وأعلن عن صرف مكافأة لي ولتلاميذي وارتفع التصفيق عاليًا، وإلى الآن ما رأينا شيئًا.. لابد أن أذهب للطبيب حين أحصل على مكافأة الامتحانات ولكن أين هي الآن ولازلنا في شهر مارس!!

أعود للمنزل بأطنان من الإجهاد، عمرو ودينا لا يكفان عن الشجار، عمرو ذهب لزيارة قريبنا الذي عاد من الكويت فطلب منه عقد عمل، حين عاتبته أمه ثار وهاج وأخذ يدخن أمام والدته المريضة، حاولت دينا إثناءه فكاد يفتك بها، رجوته أن يرحمنا مما يفعله فترك البيت وانصرف، دينا تتابع إحدى أغنيات "الفيديو كليب" تتمايل - مع الإيقاع الراقص للأغنية – بميوعة، أخاف عليها من سطحيتها، قد يجذبها أي شيء براق، طالبتها أمها بتغيير القناة كي نعرف آخر الأخبار، فعلت على مضض وهي تتأفف معترضة.. لا زالت

المظاهرات في أماكن عديدة تعلن رفض الحرب على العراق.. أشعر أنني كتلة من قلق، اللهم عفوك. السيد علي "طمبة" لا يعرف اليأس، فوجئت بأمي تنصحني بأن أنظر إليه بشكل حيادي، وأن أعيد التفكير في الأمر، فربما لم يكن سيئًا كما أتصور.. تلمح أمي بحزن عميق إلى عنوستي المحتملة، قال حسان: كل حب لا يقترن بالعقل حب غير سوي، ونسي أن يقول: كل زواج يتم بدافع الخوف من العنوسة فاشل قبل أن يبدأ.

***

الأربعاء 19 مارس 2003

كتبت في كراسة خواطري: " في هذا اليوم تعرى العالم عن وجهه القبيح، وقد خلعت شريعة الغاب كل ملابسها وكل أقنعتها بلا حياء معلنة التحدي، المحللون العسكريون يؤكدون أن ضحايا الحرب سيزيد عددهم عن مليون قتيل وجريح، وستجرّب أسلحة تم تطويرها حديثًا، فالأمر لن يكون حربًا بالمعنى المفهوم، جيش وجيش، وإنما مجزرة حقيقية، جزار وذبيحة.. الإنسان نجح نجاحًا مخيفًا فى تسخير التكنولوجيا لكل أغراضه تقريبًا غير أن الروح قد غارت فى الوحل وتاهت في دياجير غابات ما قبل التاريخ

أيقظتني أمي فجرًا بفزع:

- منهم لله! ضربوا العراق حسبنا الله ونعم الوكيل.

استمعت أمي للخبر من إذاعة القرآن الكريم، انحلت أعصابي لم تستطع أمي أن تصلي الفجر واقفة كعادتها، ساعدتها حتى توضأت وصلت الفجر جالسة على سريرها،

لاتكف عن الدعاء.

صليت الصبح لا أدري أركعة أم ثلاثًا!

تنازلت دينا – في هذا اليوم – فأعدت الإفطار، جلسنا جميعًا وقد فقدنا الشهية، ارتديت ملابسي وخرجت للشارع، كل شيء يبدو كما كان بالأمس ولكن المرار والأسى والشعور بالخزي قد سرى في روح كل شيء، حين وصلت للمدرسة لاحظت أن الجميع قد حضروا مبكرين على غير العادة.. واجهني التلاميذ بعاصفة من الأسئلة الواعية والساذجة، الكل يتحدث والمرارة هي القاسم المشترك، خطب الأستاذ فواز – في الطابور – وأنهى خطبته بقوله:

- تضامنًا مع إخواننا في العراق، فقد قررنا إلغاء حفل المدرسة هذا العام.

قراره لم يثر فينا أي انفعال سوى الصمت الموافق، حتى التلاميذ الذين كانوا في شوق إلى الحفل صدر عنهم ذلك الصمت الموافق.. قال الأستاذ فواز بمرارة:

- أقسم بالله، أنني ما أفطرت حزنًا على العراق.

جاوبه البعض يؤكدون أنهم كذلك ثم طرح أحدهم سؤالًا إن كان العراق سيصمد كثيرًا فأجابت إحدى الزميلات الشابات:

- العراقيون أصحاب حق، يدافعون عن بلادهم، لذا فلابد أن يكون صمودهم حتى آخر قطرة دم، وألا يجعلوا من وطنهم لقمة سائغة للغزاة.

تدخل الأستاذ فواز:

- يا أستاذة هذا كلام جميل يصلح لموضوع تعبير، أما الواقع فغير هذا تمامًا.

صمتت محرجة، هتف أحد ماسحي الجوخ للمدير:

- مضبوط يا أفندم، كلام حضرتك مضبوط تمامًا، الواقع يختلف عن موضوعات التعبير، ولكن ما هي رؤية سيادتك لهذا الواقع؟!

عاد الأستاذ فواز يتخذ موقف الخطيب المفوه:

- أمريكا أقوى وأعتى قوة في العالم، بالإضافة إلى أن اقتصادها هو الأول عالميًا، وعندما تجتمع قوة العتاد والمال على دولة مسكينة هدتها الحروب وأنهكها الجوع فإن الأمر لن يستغرق عدة ساعات وتسقط العراق نهائيًا.

واصل صاحبنا إياه هتافه:

- تحليل رائع يا أستاذ فواز.

لاحظت أن هذا الحديث يتم على مسمع ومرأى من التلاميذ الذين أدوا تمارين الصباح بآلية عجيبة، وقد طأطأ بعض الزملاء رءوسهم في استسلام لتحليل المدير فقلت معلقة:

- لكن أمريكا القوية هذه منيت بخسائر رهيبة في حرب فيتنام، وفيتنام دولة لم تكن ظروفها تختلف عن ظروف العراق.

انتبه لي البعض فاستطردت:

- ثم إن أمريكا المخيفة هذه لم تستطع أجهزة مخابراتها العاتية ذات الصيت الذائع منع هجمات 11سبتمبر التي كانت ضربة قاصمة لكبرها وغرورها.

بدا الأستاذ فواز لا يدري شيئًا عن حرب فيتنام، وزاد حرجه من مخالفتي لتحليله العظيم فنظر إليّ مغيظًا هاتفًا:

-لقد انتهى وقت الطابور أيها السادة، هيا كل أمام فصله، ودعكم من السياسة والحروب، فنحن في مؤسسة تربوية.

جـ - عـمـرو

قامت الحرب، الإنسان حيوان محارب، هل عاشت البشرية فترة ما بلا حروب ؟!

لست أدري من قال إن التاريخ ما هو إلا سلسلة من الحروب، هذه الحرب غير شريفة على الإطلاق، كان لأمريكا أن تتخذ أي سبيل لتشرب كل بترول العراق دون اللجوء إلى حرب شعواء كهذه، كل احتلال يعلن – للعدوان – أسبابًا شديدة السخافة لا تقنع أحدًا، ومع ذلك تبدو براقة لمن يريد الاستماع لها واحترامها والهتاف بعظمة المحتل.. أسلحة الدمار الشامل نكتة سخيفة للغاية، والأسخف خالد زكريا.

السيد خالد استقبلني بترحيب وتهليل وصخب في عدة ثوان، ثم انصرف عني بسرعة إلى ضيوفه الذين يجلس وسطهم كملك متوج، يمارس دور المحلل السياسى والمتحدث البارع، يحكي عن الحروب وأسرارها، يبدو أنه كان مع القادة الأمريكان، ومع قادة العراق أيضًا يناقشهم ويوبخهم على أخطائهم ويضع لهم الخطط العبقرية، ثم انتقل بالحديث عن رحلاته ومواقفه وكيف وقف مع المصريين الذين تعرضوا لمشكلات، وأنه الخدوم الذي يغيث كل ملهوف، وكيف أن فلانًا وفلانًا وفلانًا أمثلة حية على الخسة والضعة والخيانة والفشل، ومن حوله يصدقونه – أو يتظاهرون بتصديقه – وكأن ما يقوله آيات منزلات.

حين عرضت عليه أمري كانت مبرراته أكثر أناقة وأفضل ترتيبًا من مبررات الأمريكان للحرب على العراق، قال كلامًا كثيرًا فهمت منه أن زيارتي خائبة، أقنعني الرجل ولست أدري بم أقنعني أو كيف، خرجت من عنده يداخلني شعور عميق بأنه ألبسني طرحة أو سقاني شيئًا أصفرًا، لفني وطواني ورماني في جيبه.

عدت للمقهى، الأمم المتحدة تنام مستريحة بشخيرها العالي في جيب القطب الأوحد، سحبت كرسيًا وجلست أرقب الجميع، الإحباط يسيطر على الكل، حين سقطت الصينية وعليها أكواب المشاريب أحدثت دويًا عاليًا.. فزع الكل، وانتفض معظمنا واقفًا وقد هتف صاحب المقهى مأخوذًا: "حي"!

ثم تمالك نفسه فصرخ في الصبي وصب عليه عاصفة من اللوم، هدأ فطمئن الناس، وعاد إلى الصبي فأمره بإغلاق التليفزيون.

عدت للبيت فألفيت أمي وحدها أمام التليفزيون، ما أن رأتني حتى صاحت كأنها تستغيث:

- القصف يا عمرو، يقصفون العراق الآن، يقتلون الناس، يخربون البيوت.

قلت مشفقًا عليها:

- ستموتين طالما أنت جالسة هكذا أمام التليفزيون.

- جف ريقي، ناولني كوب الماء.

سقيت أمي وأنا أتعجب من هذه السيدة الأمية المسنة ومن متابعتها المستمرة للأخبار وخوفها وقلقها الدائمين ودعائها المستمر بأن تتوقف هذه الحرب.

حاولت التخفيف عنها فقالت مداعبًا:

- مالك خائفة هكذا، لن يقتلوك أنت، فالحرب هناك فى العراق وليست هنا.

- العراق دولة عربية ومسلمة يابني.

- هل كانوا من بقية أهلك؟!

- من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

الطعام، شعرت بالصداع فدخلت غرفتي، بعد قليل جاءت باتعة وأعدت الطعام، شعرت بتقزز من حديث الأكل.. هذه الأيام، إذا خرجت للمقهى هاجمني الملل والرغبة في البكاء، وإذا عدت للمنزل أكلتني الكآبة وإذا بحثت عن عمل عدت بالإحباط، حين كنت راقدًا – بلا نوم – سمعت بوضوح صوت مظاهرة، مظاهرة يقوم بها أطفال، ارتديت ملابسي وخرجت للشارع لا ألوي على شيء، قادتني قدماي إلى المقهى.

السأم غدا عادة العادات، أوراق "الدومينو" ألقيها بلا بحماس، أعرف الورقة التي سيلقيها صاحبي، أكشف له أوراقي، أبعثر كل الأوراق بقرف شديد، لا يبدو غاضبًا.. قناة إخبارية شهيرة تذيع حوارات مع بعض المحللين، ما هذا العته الذي نسمعه؟!

أحدهم بصق على الشاشة بضيق:

- كلاب ! بهائم !

- مصر دائمًا مستهدفة.

- مصر لا يمكن أن تفعل ذلك أبدًا.

- هل يمكن أن يكون ما يقولونه صحيحًا؟!

- لا أحد يعرف أين الحقيقة.

- الشائعات تكثر بشدة في أوقات الحروب.

- هذه حرب نفسية.

شعرت بوجع شديد في أسناني رغم أنني لم أشك منها من قبل، غيروا الشاشة إلى قناة أخرى، تناسيت آلامي بالأغاني الأجنبية التي تذيعها قناة عربية، هناك أناس لا تعنيهم هذه الحرب ولا تؤثر عليهم بشيء وآخرون سعداء بها.. انتهت الأغانى الأجنبية فأذاعوا "كليبات" عربية عارية لا تختلف عن سابقتها كثيرًا.. انتهت فغيروا إلى قناة أخرى.. العاصمة بغداد تتعرض لقصف شديد في هذه اللحظة.. قمت مغادرًا المقهى، مشيت كثيرًا، حفظت كل تفاصيل هذه الشوارع، شاهدت واجهات المحلات التي سأمتني، واصلت السير حتى وصلت للسينما، لم يتغير العرض، بائع الجرائد قريب من السينما، أعطيته مبلغًا صغيرًا مقابل أن أتصفح بعض الجرائد.. آلاف الطلعات الجوية كل يوم لضرب المدن العراقية.. الكل يطالب الرئيس الأمريكي بوقف الحرب.. إشادات بالصمود العراقي.. المظاهرات تتجدد في دول وأماكن كثيرة.. إسرائيل تشن غارات مماثلة على الفلسطنيين.

طويت الجرائد وأعدتها لصاحبها، واصلت السير، عدت للبيت، أمي مزروعة أمام التلفزيون تواصل ذبولها نسيت أن أسأل باتعة عما يقولونه في القناة الإخبارية الشهيرة التي تهاجم النظام المصري.. مسيرة ضخمة تندد بالحرب تمر بأعداد تتزايد باستمرار، لا أستطيع الدفاع عن العراق ولكني أستطيع السير والهتاف في هذه المظاهرة.

4 – باتـعـة

المنغصات والمعكننات ومفجرات المرارة صارت قوام الحياة، أتاني بعض التلاميذ يسألون مصدومين:

- هل صحيح يا أستاذة، أن مصر سمحت بمرور بوارج بريطانية وأمريكية من قناة السويس متوجهة لضرب العراق؟!

صدمني السؤال فأجبت بغيظ:

- لا تصدقوا كل ما تسمعونه خاصة في أوقات الحروب، فهناك قوى حاسدة حاقدة يهمها بشدة إثارة البلبلة وزعزعة الثقة بين البلدان العربية، وهي ثقة معدومة من الأساس.

انضم إلينا الأستاذ رمضان معلم العلوم قائلًا بخفوت:

- لقد سمعت هذا الخبر أكثر من مرة.

لم أجد ما أقوله غير أن المسئولين سيوضحون الأمر وسيردون علي هذه الأكاذيب ويفندونها.

عدت للمنزل يهاجمني الغثيان، كانت أمي نائمة، أغلقت باب غرفتها ومشيت للتليفزيون بحذر حتى لا أوقظها، أشعلت الجهاز مخفضة صوته قدر الإمكان.. تصريحات نارية من الجانب الغاشم تقابلها تصريحات أكثر نارية من الجانب المدافع عن وطنه.. سعيد الصحاف وزير الإعلام العراقي يرتدي ملابس الحرب، ويعقد مؤتمراته الصحفية

بين وقت وآخر، يهدد الأمريكان بنبرة واثقة من النصر ويصفهم بالمرتزقة والعلوج، لهذا يصفونه – ساخرين – بخفة الظل، أغلقت التليفزيون، عمرو بالخارج كعادته ودينا ستتأخر لتعدد محاضراتها اليوم، بدلت ملابسي وتوضأت فصليت الظهر، لا رغبة لدي في الطعام خاصة مع غياب الجميع، عدت لإشعال التليفزيون، أحد أساتذة القانون الدولي يعترف بمرور سفن وبوارج أمريكية وبريطانية من قناة السويس لضرب العراق، ولكن المواثيق والقوانين الدولية تنص على أنه ليس من حق مصر منع أي سفينة من المرور فى القناة سواء كانت أغراض السفينة عسكرية أم غير عسكرية إلا إذا كانت مصر فى حالة حرب مع الدولة صاحبة السفينة.. نحن فقط من نلتزم بالمواثيق والقوانين خاصة إذا كانت في غير صالحنا، الكبار لا تعنيهم هذه القوانين إلا بقدر ما يستفيدون منها، خبير آخر وأستاذ فى القانون الدولي يصر بحماس ممزوج بالمرارة أن مصر بإمكانها منع البوارج الحربية من القناة، فملكيتها مصرية مائة فى المائة، ولكن مصر سمحت بمرور سفن أمريكا لأغراض سياسية فلا أحد يريد أن يدخل نفسه فى مشكلات من أي نوع مع القطب الأوحد.. كان أبي قد اشترى بروازًا يحمل عبارة "المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا" ذابت خيوط البرواز فسقط دون أن يحدث صوتًا فلم تستيقظ أمي من نومها، أغلقت التليفزيون شاعرة بدوار، دخلت للحمام ثم خرجت بلا فائدة، الصداع النصفى يكاد يمزق رأسي، ربطت رأسي، ليس هذا وقت العذاب الشهري فمن أين تأتي جحافل هذا الصداع الغشوم!!

حاولت تناسي الصداع فأمسكت بكتاب، السطور ملتهبة، ملتوية، والحروف متشنجة لم أفهم منها شيئًا، ألقيت بالكتاب وعدت لفتح التليفزيون، هروب من الرمضاء للنار.. إسرائيل تواصل إساءة

استغلال ظروف الحرب وارتفاع غبارها إضرامًا للعذاب والقتل والهدم والتجريف والاعتقال والحرمان، أسرعت فأغلقت التليفزيون، لم يعد عمرو بعد، أصبح يسير – هذه الأيام – هاتفًا في أي مسيرة أو مظاهرة، يكاد يقتلني القلق عليه من هذه المظاهرات، أخفى الأمر عن أمي، جاءت دينا، تلح في طلب الغداء، لابد أن ننتظر حتى يرجع عمرو، فهو رجل البيت، لكن الوقت ينصهر ولم يعد، استيقظت أمي، توضأت وصلت ثم تسمرت أمام التليفزيون تنتظر عمرًا.. الجانب العراقي صلب صامد، يعلن مقتل وإصابة عدد من المعتدين، هذا الصمود يثير الإعجاب والإكبار والاهتمام، لم يعد عمرو بعد، القلق يساور الجميع، أبدت أمي سعادة مؤقتة حين أخبرتها أن فلاحًا عراقيًا بسيطًا أسقط طائرة معتدية، لا تفتأ أمي تذكر عمرًا، أحاول تغيير مجرى الحديث، تناولت دينا طعامها، ومضغت بعض اللقيمات على مضض، قمت لإعداد دروس الغد، لم يعد عمرو بعد، غسلت بعض الملابس وكويت الأخرى، طمئنت أمي بأن عمراً ليس صغيرًا وليس له مواعيد حتى استسلمت لنوم مريض، أين تراك ياعمرو؟!

نهضت أمي مفزوعة هاتفة:

- ابني.. ابني!

أسرعت إليها فسألتني بجزع:

- هل عاد أخوك؟

- .....

قالت دينا بعصبية:

- سيعود حتمًا يا أمي، هو هنا أو هناك مع أصحابه.

- شوفي الولد يا باتعة.

ردت دينا مستنكرة:

- تشوفه!!

- نعم يا بنتي.

- هل نبحث عنه؟!

- نعم، سلي عنه علي طمبة، خذي أختك، واذهبا للمقهى، وإلى أي مكان، ابحثا عن الولد.

بذلت جهدًا لتهدئتها، خرجنا بالفعل، وصلنا للمقهى، يا للحرج!!

تقدمت دينا متسائلة، عادت بالنفي، علي "طمبة" لا يعرف، راح يرغي ويزبد بكلام لم أهتم به، لا نعرف له أصدقاءً، عدنا للبيت، صارت أمي قطعة من جمر محترقة حارقة، ولولت، حاول بعض الجيران تهدئتها، طلبت من دينا أن تصنع شايًا للضيوف، خرجت مرة أخرى، ناداني الحاج إسماعيل صاحب المقهى، أخفض صوته:

- يا بنتي، أخوك عمرو كان فى الأيام الأخيرة كثير السير في المظاهرات، ومظاهرة اليوم اشتبك معها رجال الشرطة، وتم القبض على بعضهم، ومن ضمن المقبوض عليهم عضو في مجلس الشعب، وأعتقد أن عمرًا منهم و....

خفق قلبي بعنف:

- هل أنت متأكد يا عم الحاج؟!

- فرج ربنا قريب يا بنتي، وربما أفرجوا عنهم اليوم أو غدًا. شكرته وعدت للبيت مسرعة، الضيوف جاملونا بكلمات المواساة ثم انصرفوا، بقى علي "طمبة" يعيد ويزيد في الكلام عن قلقه على عمرو وكيف أنه طالما نصحه بالبعد عن المظاهرات والسياسة والكلام

الفارغ.. وددت - في هذه اللحظة – لو صفعته على وجهه، خرجت أجري لا ألوي على شيء، وصلت لقسم الشرطة، وقفت بالقرب من الباب الرئيس بخوف وتردد، اللهم أعني على دخول هذا المكان، طوال عمري أخاف من عسكري المرور، قرأت آية الكرسي والإخلاص والمعوذتين، حسمت أمري ونويت الدخول، اقتربت من الباب أكثر، أحد الذين يرتدون الملابس العسكرية اعترض طريقي يسألني عما أريد، أجبته بكلام غير مرتب وقد بدا الخوف في صوتي، ظهر التوتر ممزوجًا بالامتعاض على وجهه وهو يقول:

- مظاهرة!!

لم أدر ما أقول، وقفت صامتة يكاد القلق يأكلني، رثى لحالي فقال وهو ينظر إليّ متوترًا:

- ادخلي للسؤال بالداخل.

دخلت وقد زاد خوفي وتضاعف قلقي، غرفة كبيرة مكتوب على بابها "المأمور" نظرت بداخلها بعد تردد طويل، وقع بصري على مجموعة من الضباط، بالتأكيد يجلس المأمور في الصدارة وهو الأعلى رتبة، بعض أمناء الشرطة يقفون حول الضباط.. تقدمت أقدم رجلًا وأؤخر الأخرى، جف ريقي، شعرت بقلة الحيلة، عدت أتلو أية من القرآن حسمت أمري، جهزت ما سأقوله وهممت بالدخول، انسد الباب فجأة وأحدهم ينهرني:

- أنت يا ست أنت!

التفت لأرى عسكريًا ضخم الجثة يتابع صارخًا:

- إيه! فاكرة نفسك داخلة إلى مقهى، ورشة، طابونة؟!

ارتبكت تمامًا، ومضى وقت حتى استطعت السيطرة على أعصابي، ثم تحدثت عن أخي.

بدا مستمتعًا بارتباكي ثم قال ساخرًا:

- آه ! أخوك هذا فاكر نفسه فتوة أم بطل سينما؟! أم يعيش في دور الزعيم المناضل؟!

لم أرد فقال آمرًا:

- قفي هنا.

وقفت صامتة أنتظر فتابع ناهرًا:

- قلت قفي هنا.

- ها أنا واقفة.

كنت أقف أمامه مباشرة في الظل فأشار بغطرسة إلى الشمس:

- بل قفي هناك.

وقفت حيث طلب، ثم رحت أتوسل إليه أن يسمح لي بالدخول للسؤال عن أخي، هرش في رأسه ثم قال ساخرًا:

- أسمح لك بماذا يا أبلة، هل تظنين نفسك في مستشفى!! وحتى المستشفى لها أصول.

فكرت هل أعطيه شيئًا أم لا.. غامرت بأن فتحت حقيبة يدي والتقطت منها مبلغًا، وبالغت في التلفت حولي ثم دسست المبلغ في يده فإذا بملامحه تنبسط وقال بصرامة مباغتة:

- ادخلي للسؤال.

دخلت إلى مكتب السيد المأمور.. عيون كثيرة متسائلة ومستنكرة مصوبة نحوي كأنني ارتكبت جرمًا بمجرد دخولي لمثل هذا المكان، زاد ارتباكي وابتلعت ريقي ثم سألت:

- من فضل سيادتكم، سأعطلكم دقيقة واحدة فقط، هل جيء بالشباب المقبوض عليهم فى مظاهرة اليوم إلى هنا؟!

شعرت بأني فريسة سقطت بين مخالب ألف مفترس، العيون تخترق جسدي بعنف، هذه النظرات المتوجسة قاتلة بلا شك، منتهى أملي أن أخرج من هذا المكان، كادوا يقتلونني فعلًا بهذا الصمت المتجاهل وهذه العيون المرعبة، تنحنحت ثم كررت السؤال عدة مرات، ولم يجبني سوى الصمت المتجاهل، بدأ العرق يغمرني والارتباك يضع غشاوة على عينيّ ولم أدر كيف يكون التصرف السليم في موقف كهذا، خفت أن أنصرف، لم أجد بدًا من إعادة السؤال، بعد ألف عام سألني أحدهم:

- هل قبض على أحد من أقاربك؟

- نعم، أخي.

- يبدو أنكم لم تحسنوا تربيته.

كدت أبكي وأنا أتساءل:

- هل جيئ به إلى هنا؟

عاد الصمت القاتل يصرخ بعنف إلى أن أجاب أحدهم:

- الذين قبض عليهم في المظاهرة الأخيرة ليسوا هنا.

- أين هم إذن؟!

- لا نعرف.

- أرجوكم يا أفندم، أتوسل إليكم، فليدلني أحدكم.

بكيت بالفعل وأنا أقول بنبرة متقطعة:

- أرجوكم يا أفندم، من فضل معاليكم، أريد أي معلومة.

- لا نعرف.

- يمكنك أن ترسلي محاميًا.

خرجت محاولة أن أقاوم الإغماء، لست أدري كيف وصلت للبيت، العيون تسأل واصفرار لوني وانهياري البادي يجيبان.. دفنت وجهي في وسادتي وانهرت باكية بكاءً حادًا متواصلًا كطوفان، بكاء العمر كله تركز في هذه اللحظات، الهموم المتراكمة على مدى السنين تبدو كزلزال يجتاحني، وأمي وأختي أوشكتا على الانهيار الكامل، أخبرتهما وانفردت بنفسي.

ياربي!

إلى أي حد نحن قليلو الحيلة ضعفاء!!

النار لا تؤلم إلا من يحترق بها، المجاملات الكاذبة وحتى الصادقة لا تجدي شيئًا، اللهم لا اعتراض على ما تقضي ولكن لماذا خلقتنى! أستغفرك ربي، كان سيدنا عمر بن الخطاب يقول: "ليت أمك لم تلدك ياعمر" البهائم تسجد لله شكرًا أنها لم تكن من بنى آدم.

جاءت دينا تقول برفق:

-أمك تريدك.

قالت أمي وأثر البكاء على وجهها:

- ما رأيك يا باتعة لو تذهبين وأختك إلى عمك خالد، سيساعدكما بالتأكيد، هو رجل ويستطيع التصرف.

غمغمت دينا بمرارة ساخرة:

- يساعدنا!

- نحن في شدة ونحتاج إلى.....

قاطعتها متوسلة:

- يا أمي!

بادلتني التوسل هاتفة بعذاب:

- جربا، من أجل خاطري جربا، جربا من أجل أخيكما الوحيد.

تحاملت على نفسي، قمت فغسلت وجهي ونزلت مع أختي، اقتربنا من بيت الأستاذ خالد، خفق قلبي، تشجعت بأختي وحسمنا أمرنا، ضغطت دينا على الجرس، انفتحت شراعة في الباب وأطلت منها سيدة ترتدي نظارة طبية، ما أن رأتنا حتى انعقد حاجباها بتساؤل، قلت محاولة أن أبدو هادئة:

- هل عمي خالد موجود؟!

- لماذا؟! أقصد من أنتما؟!

استقبلنا العم خالد بعاصفة من الترحيب والتهليل، طلب من زوجته أن تصنع لنا شايًا فأجابت بصمت متكاسل فقلت:

- لا داعي، فسننصرف حالًا.

تساءل متوجسًا:

- خيرًا يا جماعة؟!

شرحت له الموضوع باختصار وانتظرت رده، تجهم وجهه صمتًا، طال صمته ثم قام فدخل غرفة أخرى وعاد فجلس ثم قال محرجًا:

- الحقيقة يا أستاذة باتعة، لست أدري ما أقول لكما.

سألت دينا بخيبة أمل:

- ألا يمكن أن تتصرف بأي شكل؟

- وماذا يمكن أن أفعل!! على كل حال لا داعي أبدًا للقلق، فما حدث مجرد إجراء أمني روتيني، وسيتم الإفراج عن الجميع بإذن الله، ودعونا لا ننس أن فيهم عضوًا بمجلس الشعب، فهذا سيحرك الأمر كثيرًا، بالإضافة إلى أن الحكومة لابد أن تقدر الظروف هذه الأيام.

قمنا لننصرف فقال بلهجة من توصل لحل لغز عسير:

- ما رأيكما لو تكلفا محاميًا بمتابعة الأمر!!

د - عـــمـــرو

كل الأمور تساوت، ما عاد شيء جميل وأخر قبيح، النصر بطعم الهزيمة، والحياة موت والموت حياة.. طعوم الحياة لا تختلف الحلو مجرد طعم والعلقم مجرد طعم، والحياة مجرد حياة.. قيم العروبة والأخوة والدم يكفر بها العرب الأخوة كفرًا لا يقل عن كفر كفار مكة برسالة السماء.

أخيرًا أطلقوا سراحنا.. كم يوم قضيناها هناك؟!

لا أعرف، ولا يهم أن أعرف، ربما ألف ألف عام، وربما قد ولدت هناك، أو لعلّ الزمن قد تصلب وتحجر بعد أن أجبروه على التوقف.

عدت للبيت ولا أدري كيف، كنت أسير في الشارع كأنني أسير في أنبوب طويل لا أخر له وكأنني سائل يسرى بقوة الدفع لا يملك من أمر نفسه شيئًا.. طرقت الباب، فتحت دينا فصرخت بفرحة وألقت بنفسها في حضني، رفقًا بي يا أختي العزيزة، كاد حضن أختي أن يسقطني، أسرعت إلى حضن أمي كأنه مرفأ أخير، أبذل جهدًا مضنيًا كي لا يرونني بقايا إنسان فتموت أمي.. كنا نسير في المظاهرة نهتف، لسنا أغبياء كي نفعل ما يضر ببلدنا، لست أدري من بدأ بالعدوان، الشرطة اعتدت على المتظاهرين الذين ردوا بمهاجمة بعض المحلات التي تبيع المنتجات والسلع الأمريكية والصهيونية أم العكس، لم

أشترك في الهجوم ولكن تم القبض عليّ وأقيم من أجلي حفل الاستقبال الشهير ثم أخذوني إلى المنظومة حتى أخرها.. لن أسير في مظاهرة بعد اليوم، جهد لا طائل من ورائه، أنا لا أصلح لشيء، فتحت أمي معي حوارًا قلقًا ، أسئلة مدببة، تهربت من كل الأسئلة الملهوفة بالصراخ العصبي، تركتها إلى الحمام كي أغتسل، رغم كثرة الاغتسال إلا أن أشياءً علقت بالروح لست أدري متى تزول.

احتفلت دينا برجوعي بطريقتها الخاصة، أسرعت إلى جهاز التسجيل ليقذف بالأغاني الصارخة الهابطة، جاء الجيران يهنئون ويحمدون الله سلامة عودتي، زاد ذبول أمي وشبح الموت يقترب.. باتعة صارت عجوزًا، يبدو أنهم قد عانوا طويلًا في الفترة القصيرة التي غبتها.

جاء علي "طمبة" يحاول إيهامي بأنه كان معهم لحظة بلحظة طوال فترة غيابي، وأنه قد بحث عني في الأقسام والمستشفيات ولدى المعارف، ودينا تلمح ساخرة ساخطة من كذبه المفضوح، كان الله في عونك يا باتعة، لست أدري كيف ستحتملين شخصًا كهذا!

أعتقد أنه سيغض النظر عن طلب يدك، لمّح لي بطلب يد دينا، لست أدري أفعل ذلك يأسًا من باتعة أم زهدًا فيها وطمعًا في "دينا" الجميلة.. على كل أهلًا بك يا باتعة العزيزة في قطار البؤساء.. لن أهتم بالسياسة مطلقًا.. لست أذكر من قال بأن السياسة أهم وأعمق وأخطر من أن تترك في يد السياسيين وحدهم، لكنني أذكر أنني طلقتها ثلاثًا.

كم أحسد هؤلاء الشهداء في العراق وفلسطين!

استراحوا من الدوران في رحى هذا الواقع.

حين أبلغونا بإطلاق سراحنا قال لنا أحد المسئولين - في محاولة فردية لغسل شيء ما -:

- كلنا ضد الحرب على العراق، وقد رأيتم بأنفسكم مظاهرات ومسيرات سلمية اشترك فيها مسئولون ووزراء وأساتذة فى الجامعات وفنانون – كما حدث – في معظم دول العالم، ولكننا ضد أى مظاهرة تخرج دون إذننا، وضد كل ما يشوه صورتنا أمام الآخرين.

اطمئن يا حضرة المسئول وطب نفسًا، فقد اقتنعنا بعبثية الحياة نفسها لا المظاهرات والسياسة فقط.

أضاف السيد المسئول بلهجة خاصة للغاية:

- وبالمناسبة، إذا كان هناك متحمسون وأصحاب دماء ساخنة وحمية وشهامة نادرة ويرغبون بالسفر للعراق لمقاومة الاحتلال فنحن لا نمنع أحدًا من السفر إلى أي مكان في العالم

هل المسئول جاد فيما يقول؟!

وهل يمكنك السفر إلى العراق يا عم عمرو؟!

ما أروع الشهادة فى سبيل الله!

وما أروع الحياة في سبيل الله أيضًا!

أرأيت!

القرار ليس سهلًا! وظروفك تختلف عن ظروف الآخرين.

ما أكثر الأمور التى أجهلها! وكم أنا صغير في هذي الدنيا!

هل يمكن للإنسان أن يولد من جديد، ليعيش الحياة من بدايتها كي يصحح ما وقع فيه!!

ارتميت في المقهى، التليفزيون يبث سمومًا ناقعة وظلمًا بلا حدود، هذا العالم يصير أكثر بشاعة كل يوم!

5 – باتعة

جمعتنا الفسحة المدرسية لشرب الشاي في غرفة المعلمين، دخل أحد الزملاء ممسكًا بجريدة.. طالت الحرب والعراق صامد كالجبل رغم انقطاع التيار الكهربي والماء والغذاء، أحوال المستشفيات في غاية السوء، الأطباء يجرون العمليات الجراحية الدقيقة للضحايا على أرصفة الطرقات بأدوات جراحية بدائية، أعداد القتلى

والمصابين تزداد بإطراد مخيف، ورغم كل شيء فإن العراقيين، يسقطون القتلى والجرحى من الجانب المعتدي.

دخل الأستاذ سرحان وبيده كرة قائلًا لبعض الزملاء الشباب:

- بسرعة يا سادة، نريد أن نلعب مباراة قبل نهاية الفسحة.

زفر زميل آخر مشيحًا بذراعه:

- يا أخي، الموت يحيط بالناس، والخراب يعم الجميع وأنت تريد اللعب!

- لأن الأمر محسوم منذ البداية يا صديقي، الأمريكان سيدكون العراق دكًا.

تدخل عم عبد الغني العامل وكان يصب له كوبة الشاي متسائلًا باهتمام:

- لماذا؟ ألا تقولون إن الحرب قد طالت؟!

أجاب سرحان متصنعًا العلم والثقافة:

- طالت أم قصرت يا عبد الغنى، أمريكا هى الأقوى الصواريخ الحرارية والذكية والقنابل العنقودية والقوة التدميرية الرهيبة، كل هذا كفيل بدك العراق.

طأطأ عم عبد الغني رأسه واضعًا كوبة الشاي على الأرض متمتمًا بقنوط أسيف:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، ولماذا يسكت الله على هذا الظلم؟!

رمقت سرحان بنظرة نارية، فتساؤل الرجل البسيط لا ينم إلا عن اليأس والإحباط.

تطوع زميل بأن قال:

- ربك له حكمة بالغة وقدرة مقتدرة يا عم عبد الغني.

رغم أنني عاهدت نفسي أكثر من مرة ألا أقحمها في جدل سياسي إلا أنني قلت محاولة ضبط انفعالي:

- والله العظيم، أمريكا هذه ليست قوية كما نتصور، ونحن لسنا ضعفاء كما نتصور، فأمريكا الرهيبة هذه ذاقت الأمرين في ميناء أم القصر بالعراق، ولم تستطع السيطرة عليه – رغم عتادها ورغم ضعف الجانب المدافع – إلا بعد أربعة عشر يومًا كاملة من الحرب المريرة ضد أهل البلد البسطاء، وقد تكبدت خسائر فادحة، حتى أن المظاهرات الغاضبة في أمريكا وبريطانيا لا تتوقف مطالبة بوقف هذه الحرب.

لم يعجب الأستاذ سرحان أن يهزمه أحد في نقاش فضلًا عن أن يكون هذا الأحد مجرد امرأة فانبرى يصيح بلهجة من يحارب لا من يناقش:

- العبرة بالنهاية يا أبلة، ولاحظي – إن كنت تلاحظين - أن كل قتيل أمريكي أو بريطاني يقابله عشرون على الأقل من العراقيين، هذا بخلاف التدمير الكامل الذي أصاب كل منشآت البنية التحتية.

قلت بهدوء بالغ:

- ولا حظ أنت أن تقدم المعتدين بطيء للغاية رغم قوتهم الخارقة.

شعرت أن سرحان يهم أن يضربني فقلت في محاولة لإنهاء المناقشة:

- وعلى كل حال لابد أن يبقى الأمل باقيًا.

هتف بسخرية طافحة:

- في انتصار العراق؟!

أجاب عم عبد الغني منفعلًا:

- بل في الله يا أخي.

أنقذتني عبارة عم عبد الغني فاستأذنت منصرفة بسرعة.

***

الأربعاء 9 أبريل 2003

المرارة تتمدد وتتعملق وتتعاظم حتى تكاد تبتلع الكون كله.. كتبت في كراسة خواطري " يظل الفارس فارسًا يقاتل مهما كانت المعركة غير متكافئة حتى تأتيه طعنة الغدر غائرة في ظهره على غير توقع.. الشعب

الصامد طعن غدرًا فانهارت قواه، آدم خان الأمانة فطرد من الجنة، وقابيل خان أخاه وقتله فأصبح من النادمين، الخيانات دائمًا تزلزل العروش وتنحر الشعوب، وتقلب كل الأمور رأسًا على عقب.. صمد الشعب المسكين بجراحه العميقة ودمائه النازفة حتى خانوه فانهزمت روحه فسقطت منه بغداده"

وضعت دينا الطعام فكان سمًا زعافًا، قالت أمي باكية:

- لا زالت لقمة الصباح راقدة على صدري.

لم ينطق عمرو بحرف ولم يكف عن الهرش فى جلده، قالت دينا متسائلة بخواء:

- مالك يا عمرو؟! هل أصابك الجرب؟!

قذفها بحذائه مغيظًا، قام يريد ضربها إلا أنها أسرعت هاربة صارخة إلى غرفتها مغلقة بابها برتاجها الداخلى وهو يطرق الباب بكلتي يديه بعنف يكاد يبكي من فرط غيظه وأنا أحاول تهدئته، وأمي تصرخ مستغيثة بالله من ابنها حتى خرج من البيت صافعًا الباب بقسوة بالغة.

في المدرسة تحاشيت رؤية الأستاذ سرحان، لكن يبدو أنه كان يبحث عني بإصرار شامت، ما أن رآني حتى أطلق ضحكة ظافرة شامتة ساخرة.. ليس أقبح من الشياطين الخبثاء إلا الشياطين الأغبياء.

تنهد أحد الزملاء بمرارة:

- كنا نتوقع الهزيمة، وإن كان راودنا أمل جميل مع طول صمود أبطال العراق، أما الخيانة فتلك ما لم تكن فى الحسبان.

- أمريكا الأقوى.

- لكن المقاومة كانت مذهلة.

- أين تحصينات بغداد؟ وأين الجيش؟ وأين.. وأين؟!

- هنيئًا لهم ببترول العراق.

- بالعكس، هذا الانتصار وبال على أمريكا، فقد خسرت كثيرًا وستخسر أكثر.

- من يصمد هكذا في حرب مباشرة فستكون مقاومته مرعبة للمحتل.

قال سرحان شامتًا:

- افتحوا التليفزيون، تطالعكم أخبار السلب والنهب لكل شيء، حتى المتحف الذي يحوى تاريخ العراق وآثار حضارته نهبه العراقيون.

كظمت غيظي بشدة:

- المعتدون أذكياء، أطلقوا سراح المسجونين المجرمين والخارجين على القانون كى يعيثوا في الأرض فسادًا، فيبررون وجود المعتدين على أرض الرافدين ويقولون للعالم: إن هؤلاء لا يناسبهم إلا القمع والرعب.

الحصة التي تلي الفسحة مباشرة كانت راحة بالنسبة لي، جاء بعض التلاميذ يطلبون مساعدتهم في إعداد إذاعة الصباح غدًا، كتبت مقالة مقاومة، دفعتها لإحدى التلميذات.

في طابور الصباح – في اليوم التالى – كان الأستاذ سرحان يقف بجثته الضخمة وعصاه الطويلة في مواجهة الطفلة الصغيرة، إلا أنها كانت تقرأ المقالة بلا تلعثم.

هـ - عـــمـــرو

تساورني أفكار مجنونة، أشعر أحيانًا أنني مجرد كيان هش، ريشة في مهب الحياة، وأحيانًا أخرى أشعر أنني لو سافرت للعراق فستتغير الأحداث إلى الأفضل.. عدت أحافظ على صلاتي، كان والدي يلومني بشدة إذا قصرت في الصلاة، أطلقت لحيتى ثم عدت فحلقتها، لم أعد أعرف ما أريد وما لا أريد، ولا من أنا أصلًا.

لو رأيت من عذبوني فى قسم الشرطة فقد أتحول إلى قاتل فورًا، وربما لا شيء على الإطلاق.. شياطين الجحيم، وعتاة الصهاينة، ومجرمو الحروب، وكفار قريش، ورءوس الغيلان يسكنون في أقسام الشرطة ومباحث أمن الدولة.. أحدهم كان يصرخ فينا: أنا أبولهب.

ربما يأتي يوم ألتقي فيه بهدى.

يا إله السماوات!

هدى!!

أتراها ما زالت تذكرني؟!

ياربي! ماذا لو عرفت هدى أنهم هناك قد.....

ماذا لو عرف علي "طمبة" ؟! أو أختي باتعة؟! أو دينا؟! أو أهل شارعنا؟!

لو عرفت أمي ستموت على الفور.. أستشعر تلوثًا في نفسي وجسدي، أهرش في جسمي أكاد أدميه، أسرع إلى الحمام، أقف – ربما ساعة كاملة – تحت الماء، هذه أمور لا ينظفها الماء، ربما لو سافرت إلى العراق أو فلسطين كي أقاتل الشياطين.

فكرة السفر تجتاحني بشدة – هذه الأيام – هذي حياة ليست كالحياة، سيكون لحياتي معناها الحقيقي عندما أقاوم المحتلين في بلاد الرافدين.

نشرات الأخبار ترمى بالقيح والصديد، ولكن نقطة النور الوحيدة تنبعث من بسالة المقاومة العراقية.

المحتلون لا يقف فجرهم وجبروتهم عند حد، كان المحللون والفلاسفة وعتاة الشاشات يعتقدون أن الأمريكان سيختارون عراقيًا عميلًا لحكم العراق، يأتون به على دباباتهم فإذا بهم يواصلون التحدي، فيأتون بـ "جي جارنر" حاكمًا على العراق.. اسم أجنبي بملامح أجنبية، بسياسة أجنبية، بسطوة المحتل، لغة القتل والدم والخراب هي الأعلى صوتًا في حوار المحتل مع الأهالي، مع الاحتلال يتوه العقل ويضيع المنطق، والمقاومة ترد بسيارات مفخخة تنفجر مخلفة جثثًا من جنود الاحتلال، تعود لبلادها في صناديق فيقيمون لها التأبينات المهيبة والجنازات الرهيبة، وبعدها تندلع المظاهرات العاتية غضبًا لها.

يحكون – على المقهى – عن العراق العامرة وبغداد الزاهرة وكيف كانت سببًا في فتح بيوت كثير من المصريين.

لو سافرت للعراق فشاركت في أعمال المقاومة فسأموت شهيدًا، وإذا عدت فسأعود مغسولًا وقد تخلصت من كل تجربة مؤلمة مررت بها.

عدت فأطلقت لحيتي، ذهبت إلى أستوديو قريب طالبًا صورة 6×9، قال لي المصور بلهجة بين الجد والهزل:

- ماذا يا شيخ عمرو، هل ستتصور بهذه اللحية؟!

قلت بشيء من الحرج:

- سأستخرج جواز سفر.

قال بلهجة جادة:

- أنصحك إذن بحلقها.

أضاف وقد عادت لهجته لما بين الجد والهزل:

- أحبابنا في أمن الدولة لا يكرهون شيئًا كراهيتهم للحى.

تكهربت أعماقي والذكرى الرهيبة تدور في ذهني كإعصار، وكدت أن أتقيأ غير أني تماسكت بصعوبة، واستطعت أن أرسم ابتسامة مغتصبة من شفتي وهمهمت:

- معك حق.

استأذنت منصرفًا بسرعة دون أن أدري إن كان الرجل قد لاحظ ما اعتراني أم لا.. حلقت لحيتي، ومضيت في إجراءات استخراج جواز السفر.

علي "طمبة" صار يتهرب مني بعد أن كان يطاردني، صار بخيلًا يبدو أنه قد يئس (أو أشرف على اليأس) من موضوع باتعة، وكذلك دينا، لو ترك والدي لنا ما نستند عليه ما جرؤ مثل علي "طمبة" أن يطلب مثل باتعة أو دينا لزواج هو أول من يدري بعدم تكافئه، لعلّ الفتى قد رأى فينا حملًا ثقيلًا، ولسنا مغنمًا كما كان يتصور.

أمي تزداد مرضًا، وباتعة لا تكف عن الطواف بها على المستشفيات الحكومية، أحيانًا أذهب معهما، ثم رأت أمي ألا أذهب، يبدو أن ذهابي معهما عبء ثقيل وليس مساعدة لهما، دائمًا ما تقول لى أمي وهي تكاد تبكي:

- يا ولدي، نحن فقراء، والمستشفيات الحكومية تحتاج إلى صبر طويل، وأسلوبك هذا يجعلهم يعاندوننا.

وأرد معترضًا بدهشة مغتاظة:

- يا أمي، لست أطلب إلا حقنا، هم من يستحقون اللوم لا أنا وألتفت إلى باتعة قائلًا بضيق:

- وهذه ابنتك العاقلة تخبرك بهذا، أم تراني أخرقًا يا حضرة الأستاذة.

تجاوبني باتعة بتنهيدة صامتة مؤيدة، ربما هي من المرات القليلة للغاية التي توافقني فيها باتعة، أعرف – والله – أنها العاقلة المثقفة، وأعرف أيضًا أنه لو ماتت أمى فسأكون ودينا عبئًا عليها.. هذه أسرة تحتاج لرجل حقيقي، وباتعة هي هذا الرجل المطلوب.

6 – باتـعـة

منذ أن ماتت أمي وأنا في حالة عجيبة من انعدام الوزن، كأنني رائد فضاء انفصل عن سفينته، يحلق تائهًا بين ظلمات الكواكب والسدم تطارده الثقوب السوداء.. أن تكون في أمان غرفة دافئة ثم تنتزع لتواجه – عاريًا – الريح العاوية والبرودة العاتية في أمطار ليلة مظلمة.

امتلأت كراسة خواطري، ما عادت تحمل المزيد، لم أشأ أن أملأ كراسة جديدة بأوجاعي، قررت قطع رسالة الماجستير، لكني لم أتخذ خطوة رسمية بعد، فماذا يجدي العلم في زمن اللامنطق، يقولون إن الحزن الكبير قد يصنع إبداعًا عظيمًا فمالي أرى حزني جاثمًا لا يكاد يسمح لي بالتنفس!

رغم كل شيء يمضي قطار الحياة، يقف لدقائق عند بعض المحطات ثم يكمل الرحلة المقدورة، تقدم إلينا عريس يطلب يد دينا، ريحانة الأسرة ببشرتها البيضاء وقامتها الطويلة وملامحها الرقيقة، الوحيدة التي تستطيع أن تشيع جوًا من المرح يخفف من وطأة ما نعانيه، لكني لازلت أخشى عليها من سطحيتها ونظرتها اللامبالية بأي شيء.

عمرو أصبح عالمًا خاصًا لم نعد نعرف عنه شيئًا، لكنه أبدى رأيًا في أمر عريس دينا، رآه مناسبًا سيصونها ويخفف عنا حملنا، ملت بدوري لرأيه، أخيرًا دخل بيتنا عريس مناسب، أحاول القيام بدور الأم

لأختي لكنها عنيدة، نافرة، رفضت العريس بشبه هستيريا أفزعتني وقذفت في روعي أفكارًا سوداء تبدأ من فكرة أن تكون قد تزوجت عرفيًا أو على وشك أن تفعل، أو تفكر في بيع نفسها لشيخ خليجي بواسطة سمسار نخاسة أو...أو.... لا حول ولا قوة إلا بك ياربي!

وقد تكون مجرد قصة حب عادية، سأفعل المستحيل لسبر أغوار هذه الفتاة، اقتربت منها، وتذرعت بالصبر، ابتسمت محاولة مناقشتها إن كان في حياتها شخص ما.

نظرت إليّ ممتعضة وهي تقول:

- شخص ما!!

عدت أبتسم متصنعة المرح:

- يا دينا يا حبيبتي، أنت جميلة، ورقيقة، وخفيفة الظل، وبالتأكيد أنت مطلوبة ومرغوبة، ولاعيب أبدًا إن أعجبت بشاب أو أعجب بك، ولكن عليه أن يأتي البيوت من أبوابها، وإذا جاء فلن نرفضه لأننا نريد لك الـ...

قاطعتني محاولة أن تبدو هادئة:

- اطمئني يا أختي العزيزة، ليس في حياتي شاب آخر، فهل استرحت أم أحلف لك على مكتبة من المصاحف؟!

فوجئت بعمرو يدخل صارخًا:

- لماذا رفضت الرجل إذن يا بنت الـ...

صرخت دينا مستغيثة فقمت فدفعتها إلى غرفتها وأغلقت الباب وأنا أهتف بحنق:

- ليس هكذا يا عمرو، دع لي أختك ولا شأن لك بها.

صاح يكاد يبكي بالفعل:

- لسنا في حال تسمح لنا بالتدلل أو العبط.

ربتُّ على كتفه مشفقة محاولة هدهدته كطفل متنمر حتى هدأ فجلس فقلت له باسمة:

- دعك من هذه المجنونة، فسأقنعها، ولكن قل لي، ماذا تنوي أنت أن تفعل؟!

تنهد مطأطأ رأسه:

- لما كانت أمي بيننا كنت أفكر جديًا في السفر، فلا عيش لي في هذا البلد، أما وقد ماتت فلا أدري ماذا أفعل ولا أعرف ماذا أريد.

- ولماذا أصدرت حكمًا مطلقًا بألا عيش لك فى بلدك؟

- لأنه لا عيش لي في بلدي بالفعل.

- لو فكر كل شاب كما تفكر الآن فلن.....

قاطعني بإشارة من كلتا يديه هاتفًا:

- أستاذة باتعة، ارحميني من هذا الكلام الكبير الذي تقرأينه في الكتب.

انصرف ساخطًا وهو يغمغم بكلمات فهمت منها أن أمه قد ماتت تاركة له مصيبتين لا يعرف كيف يتصرف معهما.

محاولاتي المتعددة للتقرب من أخواي تبوء بالفشل، هذه أسرة توشك على التمزق، كلّ منا يرى في الآخرين قيدًا في معصميه، لو تزوجت دينا فقد أفكر في قبول علي "طمبة" كى يتحرر عمرو تمامًا ويشق طريقه دون أن ينوء بثقلنا، الحاجة أم التنازل، رحم الله أمي، وحدها من كانت تلم عقدنا، أين تراك الآن يا حسان؟!

حين انتقل من مدرستنا وأنهى بيده قصتنا القصيرة لم أجرؤ أن أسأل عنه، وحين يطوف بفكري أحاول التخلص منه، فليس من حقي التفكير في شخص أعرف أنه ليس لي، لكنه لو كان معي الآن لاختلف المسار كثيرًا عما أنا فيه.. لا مقارنة بين حسان وعلي "طمبة" لكن حسان مجرد شهاب برق في سمائي ثم انتهى، أما علي فيحمل سطوة ووطئة الواقع الذي أحياه يومًا يومًا.

هل أبلغ عمرًا بموافقتي على الارتباط بعلي طمبة؟!

رباه! "طمبة" هذا يقترن في ذهني بالنفور والصدود والتقزز، سامحك الله يا حسان، لو لم تظهر في حياتي فلربما نظرت لعلي نظرة أخرى.

ولماذا أظلم حسانًا؟!

لقد حاولت أن أتقبل "طمبة" إرضاءً لأمي، لكنني كلما فعلت تبخر الارتياح وتغبر الجو بالرفض.

لقد خلق الله الإنسان حرًا مخيرًا، مسئولًا عن أفعاله وأقواله، ولكن هناك أمور لا خيار لي فيها كلون بشرتي ورحيل أبي وأمي وهجر حسان وتسلط عمرو ولا مبالاة دينا، فهل ينضم "طمبة" لهذه القائمة المقدسة؟!

بعض علماء الفقه - الذين قيل عنهم متشددون – اشترطوا التكافؤ لكي يصح الزواج.

ياله من شرط!

أتراك يا باتعة سترضخين لوطئة الظروف أم تواصلين الصمود وتتمسكين بحق الاختيار!!

و- عـــمـــرو

تسلمت جواز السفر، رحت أقلبه بين يدي، لو تزوجت أختاي فهذا الجواز رمز الخلاص وإلا.....

ماذا يا عمرو؟! ألن تسافر إلى العراق لتقاوم طغيان وبغي مدعي الحضارة والرقي أم تراك جبنت وأتاك ترددك العاصف؟!

لست أخشى الموت في بلاد العراق، فالموت شهادة، ولكنني أخشى أن أقع أسيرًا في يد الأمريكان فيسلمونني إلى أجهزة الأمن في بلادي الحبيبة.

لماذا استخرجت هذا الجواز إذن؟!

لعلي أود السفر إلى إحدى بلاد الخليج، وهناك قد أجد عملًا أكسب منه دولارات وريالات كثيرة أحوالها إلى أحد البنوك المصرية أو أبيعها في السوق السوداء (فهي الأكثر ربحًا) وأوسع على باتعة ودينا ثم أتزوج، وقد أختلف مع كفيلي فيأكل عليّ أجري، فأضربه فيسجنني أو يتم ترحيلي إلى حيث أجهزة الأمن في بلادي الحبيبة.

وهناك فرصة رائعة إذا سافرت إلى أوربا، وبخاصة إيطاليا حيث الثراء السريع، الأجر يحسب عن كل ساعة عمل، ساعة العمل تساوي عشرة يورو.. أسمع عن شباب سافروا لمدة عامين فقط، فإذا بكل منهم يعود فيمتلك عمارة من عدة طوابق، ويتزوج ويقيم عرسًا ماله

مثيل، والبعض امتلك فيلا بحمام سباحة واسع.. إذا قررت الهجرة إلى إيطاليا فستكون – بالطبع – غير شرعية، حيث أسافر إلى ليبيا، ومن ليبيا أركب مركبًا صغيرًا به مائة شخص غيري، حيث يغرق بنا المركب قرب سواحل إيطاليا فيتم القبض علينا وتسلمينا إلى أجهزة الأمن في بلادي الحبيبة، أو نغرق كلنا ونصير طعامًا للسمك، ويختلف حولنا الفقهاء وعلماء الدين وأساتذة الاجتماع وأباطرة الشاشات إن كنا ضحايا شهداء أم مارقين مذنبين.

مهلًا! لماذا أريد السفر؟!

أليس من أجل أن أتزوج وأكون صاحب أسرة سعيدة؟!

وهل أنا أصلح لأكون رب أسرة؟!

كنت أريد الزواج لأنني أحب هدى، أما وأني قد عرفت أن الحب للمرفهين والقادرين عليه فقط فلا رغبة لى في زواج، سأظل عازفًا عن الزواج كأختي باتعة، الأستاذة باتعة على حق، أمارس البحث عن عمل ثم أعود للمقهى، موت أمي ألغى فكرة السفر، فزواج البنات مسألة قسمة وقدر، انقطع معاش الوالد بوفاة الأم، نحيا ثلاثتنا براتب باتعة.. أليست هي رجل البيت!!

هل لو تزوجت سيسمح لها زوجها بالإنفاق علينا؟!

إلى متى سأظل هكذا؟!

أعتقد أنني مشروع لمنتحر ناجح.. لو لم يكن الانتحار كفرًا وخلودًا في النار لفعلتها منذ زمن، خسرت الدنيا فلماذا أخسر الأخرة أيضًا!!

العمل حق دستوري لكل مواطن.. لا.. لا.. يا عم عمرو، قلنا: لا سياسة ولا مظاهرات ولا.. ولا.. فقط لقمة العيش

حسنًا يا سيد عمرو، أين هي لقمة العيش؟!

ابحث يا عمرو، ولا تكن كسولًا، ولا تنتظر من الحكومة أن تجد لك عملًا، يكفي الحكومة جميلًا ومكرمة أن تكف أذاها عنك.

لكنك يجب أن تفعل شيئًا.

أبحث عن عمل وأبحث، أجد أعمالًا لا تدوم ثم يستقر بي المصير دائمًا على المقهى.

القناة الإخبارية الشهيرة تعلن أنها ستعرض مشاهدًا وأخبارًا مروعة، لا يصح أن يراها الأطفال أو مرضى القلب، قال أحدهم بسخرية متوترة:

- هل سيغيرون النشاط من الأخبار إلى أفلام الرعب؟!

تسمر الجميع أمام الشاشة، يا إله السماوات!

أبشع الكوابيس تتضافر معًا لتصبح كابوسًا عملاقًا يلتهم إنسانية الإنسان بلذة التوحش الخرافية، أراني مسجونًا في سجن أسود تحت الأرض، زنازين مرعبة وغرف ضيقة تناثرت الدماء على حوائطها صانعة رسومًا سريالية للرعب المتعاظم، وبركة ماء آسن تقترب منها عربات محملة بأعداد هائلة من الجثث المتنوعة بين نساء وأطفال ورجال وشيوخ، وعلى كل الجثث تظهر بوضوح فاضح علامات تعذيب مفزعة، والعربات تلقي بحمولتها في البركة ثم تذهب لتعود بحمولات أخرى، وآراني مصلوبًا عاريًا، وهذا الشيطان الرجيم يمسك بسلسلة في نهايتها كلب مفترس، يطلقه بوحشية لينهش أعضائي عضوًا عضوًا وجسدي يرتعش بعنف وقد تغطى بالدماء، والغريب أنني لا أجد صوتي كي أصرخ أو أستغيث، وآراني صرت امرأة عارية تسير رافعة ذراعيها بين طابورين من البشر وقد تلطخ جسدها بمادة كاوية أسالت الدماء

عاوية، هذه المرأة ليست أنا، بل أختي باتعة، بل دينا، أختاي تشهداني مربوطًا من عنقي بسلسلة في يد شيطان آخر وقد أخفوا رأسي بما يشبه طاقية عملاقة، وأنا أمشي على يديّ وركبتيّ وقدميّ والشيطان يجبرني على تقليد أصوات كلاب وقردة وحيوانات أخرى، ويمرون بي على أبواب أسمع من خلفها – بوضوح – صرخات عالية، ممزقة، مستغيثة، وتنفتح أبواب أخرى عن قاعات فسيحة فإذا بآلاف البشر كلهم عراة، عراة بشكل مزر، دام، قاس، وقد تعلق بعضهم كذبائح مسلوخة على قيد الحياة، وصلب بعضهم على قوائم معدنية شديدة الكآبة، وأمام كل ضحية جلادوها الذين يتفننون في استخدام كل أدوات وآليات التعذيب في هذا الجحيم المستعر.

أخيرًا.. أخيرًا انفك صوتي، فرحت أصرخ وأصرخ بفزع، وأنتفض وصراخي يتعالى مرعوبًا، سقطت على أرض المقهى أتلوى كأنني سحلية نالتها ضربة توشك أن تقتلها.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- أغلقوا هذا التليفزيون الملعون أو حولوه عن هذه القناة.

- القنوات والصحف العالمية تنقل الكابوس إلى ضمير العالم.

- سجن أبو غريب.

- جريمة لا تسقط بالتقادم.

- عولمة التعذيب.

- الرئيس الأمريكى يرفض بغطرسة دعوة الأمم المتحدة لغلق معتقل جوانتنامو.

- أحدث منجزات الحضارة.

- تحقيقات هزيلة.

- الزبانية يتنطعون بأنهم ينقذون أوامر قادتهم.

- مليارات الدولارات لاستيراد آلات التعذيب والإيذاء.

- فضيحة مدوية.

- مستشفى ومعاطف بيضاء.

- قطط تموء بعنف.

- أصوات سيارات وكلاكسات مخيفة.

- انهيار عصبي.

- سباحة سرمدية في أنبوب مظلم طويل.

- رؤى تتضح بتتابع بطيء.

أخيرًا أرقد على سرير، أفتح عينيّ، أحدق في السقف، يطل عليّ وجها باتعة ودينا بحنان أمومي.

- حمدًا لله على سلامتك يا بطل، شغلت قلوبنا عليك.

7 – باتـــعـــة

ليس أقوى من الموت إلا الحياة نفسها.

الحياة رحلة لا تنتهي نحو الأبدية، أما الموت – على سطوته – فمجرد محطة، نستكمل بعدها الرحلة نحو البقاء الخالد، لقد خلقنا الله للخلد!

الحياة تمضي بنا بإيقاع لاهث، وتتابع متلاحق، فما أسرع مرور الأيام والسنون!!

مياه كثيرة سارت في النهر، السنوات التي مضت غيرتنا أم نحن تغيرنا من داخلنا!

أقف الآن وسط بحر متلاطم متعاظم من البشر في لحظة فوق سيطرة الزمن، طوفان البشر يهدر راعدًا، منذرًا، صانعًا للمصائر: "الشعب يريد إسقاط النظام"

هذه الوجوه المشعة بألق نوراني، أستشعرها ملائكية قدسية قادرة قاهرة على التغيير لأنها قد تغيرت، نسائم الحرية الوليدة شحنت الناس بطاقة روحية هائلة، أنشأتهم خلقًا آخر، هؤلاء بشر لكنهم ليسوا كالبشر، أعرفهم ولا أعرفهم، أليس هذا الفتى الذي يتدفق حيوية ونشاطًا، يتحرك هنا وهناك، يفتش الداخلين، ويساعد كبار السن، ويرشد التائهين، ويتبادل الإشارات المتفق عليها مع زملائه،

ويبدي ملاحظاته على بعض اللوحات المعلقة، ويضحك بملء شدقيه – كأنه لم يضحك من قبل – لنكتة جديدة ضمن إعصار النكات التي انفجرت في الميدان، ولديه فائض كبير من الحيوية لم يستهلكه بعد، أليس هذا الفتى عمرًا؟!

عمرو أخي؟!

وهذه الفتاة المنغمسة بحماس عارم في حلقة نقاشية حول ما ينبغي عمله في الأيام التالية، أليست دينا أختي؟!

التقيت بصنوف من البشر، صافحت عيناي آلاف الوجوه، بعضهم ينظم ويرتب ويهتف وينظر، وبعضهم يقوم بجمع القمامة من أرض الميدان الذي تحول لمدينة فاضلة بالفعل على أرض الحياة بعد أن ظلت لآلاف السنين مجرد حلم يراود الفلاسفة والشعراء والحالمين.

كنت أوزع أكواب الشاي على بعض من حولي حين جاءتني دينا ضاحكة، تمسك بيدي ملفتة نظري إلى إحدى الشاشات الموجودة في الميدان، شخص امتلأ جسده وأكل الصلع رأسه يصرخ مهددًا من بالميدان ويصفهم بالخونة والعملاء، وأنهم يأكلون "الكنتاكي" كل يوم وأنهم.. وأنهم.....

ضحكت بدوري ودينا تقول باسمة:

أليس هذا هو السيد علي "طمبة"؟!

عدت أضحك، اختفى من الشاشة، وعدت أوزع الشاى، انتهى الشاى فانشغلت بطفل صغير محمول على عنق أبيه، يمسك علمًا يلوح به ويهتف بحماس طفولى آخاذ، ومن خلفه يردد جمع كبير من الناس.. العقل والقلب يتشاكسان، حدثت هنا معجزات ما كان أحد يتصور حدوثها، والتقت وجوه كان لقاؤهم من نسج حكايا الرومانسية، فهل يمكن أن نلتقى بحسان؟!!